مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (3)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (3) 2017

مفهوم الدولة عند هيغل

الدكتور فارس النداف*

(تاريخ الإيداع 17 / 5 / 2017. قبل للنشر في 15 / 6 / 2017)

□ ملخّص □

تعد الدولة قديماً وحديثاً محور الدراسات السياسية من قبل المفكرين في العصور القديمة أو الوسطى أو الحديثة.

فدراسة هيغل للدولة أعطتها مفهوماً خاصاً من حيث تركيزه على علاقة الدولة بالشعب والأفراد، إذ أصبغ على الدولة صفة القداسة، وادعى أنها تنتمي مباشرة إلى عالم الروح والفكر والإرادة " اللانهائي المطلق " برسم أصلها في الواقع وفي مجال الفكر الفلسفي إذ أكد على أهمية العاطفة والإرادة بقوله: "لم يتم شيئ عظيم في العالم من غير عاطفة" ولكن تاريخ العالم يتبع مملكة الروح، فالدولة هي الشكل الذي يصطنعه التجسيم الكامل للروح، والدولة هي وحدة الإرادة العالمية الجوهرية مع الإرادة الفردية، لقد مجد هيغل الدولة حيث اعتبر أن كل ما للإنسان من قيمة وحقيقة روحية إنما تأتي إليه عن طريق الدولة، فالدولة هي الفكرة المقدسة.

الكلمات المفتاحية: الدولة، الديالكتيك ، الروح المطلقة، الإرادة، الفكرة المقدسة

* أستاذ مساعد – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (3)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (3) 2017

RésuméLa conception de l'État chez Hegel

Dr. Fares Alnaddaf*

(Déposé le 17 / 5 / 2017. Accepté 15 / 6 / 2017)

□ Résumé □

L'État a toujours fait l'objet principal des études politiques menées par les intellectuels Anciens, Médiévaux et Modernes . Ainsi, Hegel a réhabilité le concept d'État en insistant sur la relation entre l'État et le peuple . En effet, Hegel, a doté l'État d'une qualité divine en soutenant qu'il relève directement de "l'infini absolu" de l'Esprit, de la pensée et de la volonté. Il trouve que l'origine de l'État réside dans la réalité et dans le domaine de la pensée philosophique, mettant ainsi en évidence l'importance de la passion et de la volonté : "Rien de grand ne s'est fait sans passion" dit-il. Toutefois, l'histoire du monde emprunte une voie qui conduit au royaume de l'Esprit. En effet, l'Esprit s'incarne complètement dans l'État, celui-ci étant l'union entre la volonté universelle et la volonté individuelle. Hegel a glorifié l'état en considérant que toute la valeur et la vérité spirituelle que possède l'homme provient de l'État, puisque celui-ci est la réalisation de l'idée divine sur terre.

Mots-clés : l'État, la dialectique, l'esprit absolu, la volonté, l'idée divine.

* **Professeur: Fares Alnaddaf, Professeur adjoint, Université Tishreen.**

مقدمة:

جعل هيغل من الدولة موضوعاً مقدساً، فأسهم في إيقاظ المشاعر القومية الداعية إلى وحدة أمته كأساس، لانطلاق دور ألمانيا الحضاري، فنظريته السياسية تشكل المحور الذي دارت حوله معظم المذاهب السياسية، التي انطلقت ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فأهمية فلسفته في التاريخ تعود لعلاقتها بالفكر السياسي اللاحق وبخاصة الماركسي، إذ كان الديالكتيك نقطة الاتصال بين هيغل وماركس، ويقال عادةً أنه لولا هيغل لما قدّر لماركس أن يقدم فلسفته المتأثرة بالمنهج الهيغلي الديالكتيكي. كما أن دفاعه عن الدولة الوطنية القومية أبرز عيوب الفلسفة الفردية التي سادت إنكلترا وفرنسا آنذاك، ومهد للأفكار السياسية الواعية لتقديس الدولة القومية، ومساندة تيار الحكم المطلق والتضحية بالفرد ومصالحة في سبيلها وظهرت بصورة النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا وحكومة فرانكو في اسبانيا، كما انبثقت منه سياسات القرن الحالي. فجاءت الليبرالية تمثل رد فعل عنيف ضد سياسة الدولة المطلقة([1])

أهمية البحث وأهدافه:

شكلت ظاهرة الدولة محور نظريات عديدة، سعت جاهدة لتفسيرها وإدراك جوهرها والتكهن بمستقبلها أحياناً. وسنحصر البحث في دراسة مفهوم الدولة عند هيغل، فالتصور الهيجلي للدولة هو جزء من مذهب، ولا يبرر إلا بالنظر إلى هذا المذهب.

فالدولة هي الموجه للتطور القومي وهي تمثل التطور الفكري الذي يجمع بين الأسرة والمجتمع ويتمثل في الدولة أيضاً نظام أخلاقي، حيث تتصهر في إرادتها الحرة إرادات الأفراد.

ومعنى هذا أن فلسفة هيغل السياسية تتضمن عنصرين لهما أهمية خاصة وهما الجدل الذي قدمه هيغل كوسيلة تستخدم في الدراسات الاجتماعية والعنصر الثاني هو نظريته عن الدولة القومية كونها تجسيداً للسلطة السياسية ولقد رأى هيغل أن الأسرة والمجتمع المتحضر والدولة هي المراحل الثلاث لكي يتم السمو الصاعد إلى المطلق.

منهجية البحث:

لكل دراسة سياسية أو فلسفية منهجاً تتبعه للوصول إلى الهدف المطلوب، ولعل دراسة الدولة عند هيغل فرض علينا استخدام المنهج التحليلي التاريخي.

1 –الديالكتيك عند هيغل.

عرفت فلسفة هيغل بالفلسفة الكمالية، وذلك لأنها تعتمد على نظرية التطور الحتمي في التاريخ حتى الوصول إلى الكمال. وعملية التطور هذه يعرّفها هيغل بالديالكتيكية أو الجدلية فكلمة ديالكتيك مشتقة من اللفظة اليونانية Dialegestia التي تعني التقاء الناس للتحاور والاقناع بالبرهان. لهذا عرف ديالكتيك بالحوار والبرهان أو بفن الجدل وأول ما ظهرت معالم التفكير الديالكتيكي في الفلسفة اليونانية القديمة([2]) وبالأخص عند هيراقليطس، صاحب الصورة المعروفة عن التطور الناجم عند التعارض بين الشيء ونقيضه أو الفكرة ونقيضها.

(1)سلمى حمزة الخنساء، تطور الأفكار السياسية، الجامعة اللبنانية 2003 صفحة 85

(2)للمزيد انظر كتاب فرانسوا شاتليه، هيغل، ترجمة جورج صدقني، مراجعة فؤاد جرجي بربارة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1976.

لكن بينما توقف هيراقليطس عند الحالة ونقيضها فقد أتى هيغل ليتجاوز هذا التناقض ويصل إلى وحدة جامعية.

لقد نظر هيغل إلى أداة التفكير التي كانت سائدة حتى عهده فوجدها متمثلة بالمنطق الصورى الذي يفصل بين الشكل والمضمون في الفكرة، وينكر وجود أية علاقة بينهما.

إنه منطق يحصر اهتمامه بالشكل فقط، بقطع النظر عن المحتوى، ولهذا فقد أكد هيغل أن المنطق الصورى هو منطق الهوية والنقد، أي يجعل النقيض ينفي نقيضه دون أن تكون هناك أية رابطة بينهما. فكل منهما منفصل عن الآخر. كذلك وجد أن هذا المنطق القائم على مبدأ الهوية والتعارض، أي الحكم المطلق للأشياء يؤدي إلى اعتبار كل حكم أو نظرية إما صحيحة صحة مطلقة وإما باطلة بطلاناً مطلقاً بدون التقاء بينهما.

من هنا بدأ هيغل دراسته متوجهاً أن لا شيئ صحيح صحة مطلقة أو باطل بطلاناً مطلقاً فكل رأي هو خاطئ بما يقرره إطلاقاً ومصيب بما يقرره نسبياً، وصحيح بما يرفضه رفضاً نسبياً وباطل بما يرفضه اطلاقاً، لقد حاول هيغل أن يضع القاعدة لجمع الشكل والمضمون في وحدة فكرية غنية وضرورية في الوقت ذاته، وعد أن كل تناقض ما هو إلا علاقة بين المتناقضين ولكي يكشف العقل هذه العلاقة ينبغي له أن يرتفع ليتجاوز النقيض، وهكذا وضع هيغل تعريف للديالكتيك بأنه حركة الفكر العليا التي يفضلها، حيث تتداخل المظاهر المتعارضة لترتفع فوق التناقض – يعد هيغل أن كل موضوع فيه تناقض أي فيه حدان متعارضان بالضرورة، وكل موضوع لا تتناقض فيه هو تجريد ذهني محض، بحيث يبرز أحد الحدين ويخفي الآخر. كما أن روح المضمون تتجاوز نفسها باستمرار سلباً فإيجاباً. والسلب هو أيضاً إيجاب فما يتناقض لا يتحول إلى صفر أو إلى عدم.بل إلى سلب يمضي فيه إلى مفهوم على أن يكون قد اغتنى بسلبه أي بنقيضه. وهكذا يكشف هيغل الحد الثالث للتعارض أو الصيرورة الناجمة عن غنى كل رأي بنقيضه ويتجاوزه، وهذا ما يوضح العلاقة بين النقيضين. هذه العلاقة التي يكمن فيها سرّ التطور الدائم واللامتناهي والمتمثل بالصيرورة التي تتجاوز – وبشكل دائم – الحدود المتعارض لتخلق شيئاً جديداً.

إذ المبدأ الديالكتيكي عند هيغل يعني أن كل تغيير نتيجة تعارضه بين حالات متناقضة أو متعارضة يؤدي إلى تحديد صورة جديدة أعلى وأرقى من سابقها. لقد اعتبر هيغل أن هناك تطابقاً كاملاً بين الواقع المادي المحسوس والفكر ،فالأشكال الذاتية للمعرفة هي في رأيه الأشكال الموضوعية للواقع. كما أن الأفكار هي الأساس المطلق لكل الأشياء والمصدر لمحتواها. لذلك فإن كل ما هو واقعي هو عقلي، وكل ما هو عقلي هو واقعي،
ولا مجال للتعارض بين الوجود وواجب الوجود، لأن الواقع هو شيء إلهي يعبر عن العقل(3)

فلسفة التاريخ:

لقد عدّ هيغل أن العالم في تطور دائم وتغير ديناميكي مستمر، وهذا التطور يشكل أمراً طبيعياً وضرورياً لعدم الوقوع في الجمود أو الفناء. ففي مؤلفه (فلسفة التاريخ) الذي عدتّ من أهم ما كتبه هيغل حاول أن يتبع قانون التطور الذي سارت على أساسه الانسانية في حياتها الماضية ويبين أن كل شعب متاح له أن يرتقي ذروة المجد ويقبض على صولجان الملك حيناً من الدهر، ليكون أداة لا شعورية ينفذ إرادة الروح العامة، ويظل هكذا حتى ينهض شعب آخر فيخلفه بفكرة عن الحرية أوسع من فكرة سلفه، وفهم أسمى لوظيفة الانسان، وهنا يقول هيغل إن من يتأمل في سير التاريخ وتطوره يجده خاضعاً لعقل عام، وما تاريخ العلم إلا عملية عقلية، وروح العالم هي القوة الرائدة لتقدمه والأدوات التي تتخذها تلك الروح للوصول إلى أغراضها هم عباقرة الأمم وأبطالها. وكل شعب يعلو إلى المجد والقوة، إنما يعبر عن جانب من جوانب الروح العامة. فإذا ما ظفرت الروح العامة بغايتها منه، تنازل ذلك الشعب عن قوته، وسلطاته

(3)مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع 2007 صفحة 222، 224

لشعب آخر فتاريخ العالم هو تحقيق لإرادة العالم. وما نوابغ التاريخ إلا أدوات اتخذتها تلك القوة العالمية لتنفيذ أغراضها.([4])

حتى ولو توهموا أنهم يحققون أغراضهم الشخصية، لذلك أعجب هيغل بنابليون إعجاباً عظيماً ورأى أنه يمثل عصره ويجسّده، فهو وسيلة لتحقيق غاية أعظم منه. فصراعه ضد خصومه في الداخل وفي الخارج كان الهدف منه تحقيق المجد الشخصي لنفسه. ولكنه في تحقيقه لهذا المجد كان يسهم وبدون وعي مسبق بتحقيق إمبراطورية واسعة ذات أثر كبير في العالم، ومع أن هذا الانجاز كان لصالحه الشخصي ولصالح فرنسا، فقد كان كذلك لصالح التاريخ كله لأن روح التاريخ هو الذي يسيطر ويخضع لا وعيه لتحقيق إرادة روح العالم، فيما يخص هيغل لا يمكن فهم التاريخ على أنه تاريخ رواة الأحداث الأوليين ولا التاريخ الذي يحاول تفسير الواقع واستخلاص الدروس العملية من الماضي بل يمكن فهمه على أنه التاريخ الفلسفي الذي يشرف على الأحداث وتطورها من وجهة نظر شاملة وغير زمنية، وتتجلى بوضوح في جدلية التاريخ.

والتاريخ عند هيغل هو قصة تطور الوعي بالحرية وتزايدها، فكلما تقدم التاريخ عبر الزمن كان الوعي بالحرية يزداد وبالتالي يزداد من يتمتع بها وعلى هذا الأساس قسم هيغل التاريخ إلى ثلاثة مراحل: 1- مرحلة الشرق القديم في الصين، والهند ومصر، حيث كانت السلطة قائمة على الطغيان وبالتالي فإن الحاكم الطاغية وحده كان حراً، وسبب ذلك يعود إلى أن الروح في الشرق القديم كانت منغمسة بالطبيعة، لذلك لم يعي الشرقيون القدماء بأن الروح حرة، فبات مفهوم الحرية ممثلاً بالاستبداد والطغيان. 2- المرحلة الثانية تمثلت بالعهد اليوناني ومن ثم الروماني حيث بدأت الروح تدرك نفسها وتحقق حريتها لكن دون أن تبلغ الكمال بوعيها لذلك لم يتمتع بالحرية عند اليونان والرومان سوى طائفة قليلة هي طبقة الأحرار، بينما كانت الكثرة الباقية من طبقة العبيد والأرقاء. 3- المرحلة الثالثة وهي المرحلة الجرمانية التي ابتدأت مع انتشار المسيحية بين الأمم حيث اعترف بإنسانية الإنسان وأقرّ الإخاء بين البشر، وهنا كانت الروح قد بلغت ذروة إدراكها الكامل، فأصبح الجميع يتمتعون بحريتهم الدينية والسياسية.

الدولة القومية:

كانت الدولة القومية لدى هيغل محور فكره السياسي،مجدها واعتبرها مصدر كل القيم والحقائق الروحية، هي المثل الأعلى العقلي والغائي للتطور، هي كائن طبيعي حي ينمو بنمو الوعي بالحرية، هي تحقيق الفكرة الأخلاقية لصورة العقل وذاتيته. والدولة تتكون من أفراد والفرد لا يعيش منعزلاً بل ضمن جماعة في نظم اجتماعية، وأقدم نظام من النظم الاجتماعية هو النظام الأسري.

وهذا النظام الاجتماعي الأساس الأول، مؤسس على علاقة ثنائية بدائية علاقة الرجل بالمرأة فهو ينظم الزواج، ويرضي مطالب الإنسان الحسية،وهو ليس أمراً يقوم على الحب فحسب وإنما يجب أن يصدر عن الشعور بالواجب تجاه الدولة، ويعقد لأجلها ليعتبر عملاً أخلاقياً، فالأسرة تمثل المرحلة الأولى من الديالكتيك الهيغيلي([5]) وبالتطور الطبيعي للروح المطلق يتكون نظام المجتمع المتحضر أي المجتمع المدني، ومن مجموع الأسر الذين ليس لهم يد في صنعه، وهو يقوم على إشباع الحاجات الاقتصادية فيسود التناقض بين الأفراد لتحقيق أغراضهم، والدفاع عن مصالحهم، هذا المجتمع غايته صون الحقوق وحماية المصالح الفردية، وهو مجتمع الصراع الاجتماعي يعبر عن عالم

(4) المرجع السابق صفحة 225

(5)ليونارد، بورجوا، فكر هيغل الأساسي، ترجمة الأب الياس الزحلاوي، منشورات وزارة الثقافة السورية، 1981، صفحة 56

(6) سلمى حمزه الخنساء تطور الأفكار السياسية، مرجع سابق صفحة 91.

(7)لمزيد من الاطلاع راجع د. محمد عبد العزيز نصر، النظريات السياسية والنظم السياسية دار النهضة العربية، بيروت 1993، ضمن 140-145

الإنتاج وحرية التجارة، ويمثل الرأسمالية الحرة فالإنسان ليس بمواطن المطلوب الدولة الحقيقية حيث يصبح الإنسان مواطناً أي على وعي بإرادة وحدة الكل، وتسن النظم والقوانين وتنشأ هيئات ومؤسسات، وهذه هي المرحلة الثانية المضادة للأولى التي يمكن اعتبارها ممثل للجانب الاقتصادي في الدولة(6)

وتواجه المرحلة الأولى نقيضها، وينشأ عن ذلك مرحلة ثالثة جديدة هي مرحلة التأليف بين النقيضين، مرحلة تكوين الدولة فتجمع حسنات المرحلتين السابقتين، وهذا التأليف لا يلغي الأسرة والمجتمع المدني وإنما يسمو عليهما فأرقى واجب هو أن يصبح الأفراد أعضاءً في الدولة، فيسود الإنسجام والوحدة، بين الأسرة والمجتمع المدني وتترابط مصالحهما بقوة أسمى من قوتهما بأهداف كلية وشاملة تمثل حقيقة الفكرة الأخلاقية(7)

إن الفكر تحركه الدوافع الأنانية والمجتمع يوازن بين هذه الإتجاهات اللاأخلاقية والدولة تتجسد فيها القيم الأخلاقية، فالدولة والمجتمع في حركة بين ما هو موجود وبين ما يجب أن يكون، إن الدولة هي تعبير عن روح العالم الأسمى، وماهية الروح هي لحرية، إن مبدأ الحرية هو مركز جميع دوائر النظام الهيغلي، للوصول إلى هذه الحرية، يتابع هيغل صراع الروح الكونية لتحقيق ذاتها. فالروح في البداية تائهة في الطبيعة مهمتها الوعي بالعلم والذات، وأرقى لحظاتها الإرادة،لقد أقام هيغل الإرادة كمبدأ للدولة فبالإرادة تتحدى الروح الطبيعية، ومن ثم تنقلنا لإرادة من الروح الذاتية إلى الروح الموضوعية ومن ثم إلى الروح المطلقة. ففي حالة الطبيعية يتصرف الأفراد تصرفاً أنانياً فيخرجون عن الارتباط بالروح الموجودة فيهم فالروح نائمة ويصبحون عبيد الأهواء والرغبات، وفي حالة المجتمع تنظم الأنانية بالقانون ومن ثم يدرك الأفراد أن الآخرين هم أمثاله وإن العقل هو المشترك فيما بينهم ومن ثم يتخذ حرية الآخرين حداً لحريته في مرحلة الروح المطلقة، حيث تتصالح الأخلاقية الفردية بما فيها من ذاتي مع المسلك الموضوعي لأعضاء مجتمع تحكمه الدولة. فروح العالم لا تعبّر عن نفسها إلا عن طريق قيام الدولة القومية.

إن للدولة خصائص جوهرية في النمو الكامل للمشيئة الموضوعية للروح الشمولية هي التحقيق المطلق للروح في العالم، هي تنظيم يسمو على الإرادات،

يستطيع وحده أن يقدم المصلحة الجماعية على أنها تفوق المصالح الخاصة، وهي الوحدة الروحية التي تتجسد فيها القيم الأخلاقية، وليست وسيلة أو مؤسسة نفعية توفر الخدمات والمصالح. هي أعلى أدوات الحقيقة إنها بالواقع الله بعينه، إنها كما قال الفكرة الإلهية التي تقوم على الأرض([8])، هي غاية المواطنين ولا قيمة لهؤلاء إلا من حيث صلتهم بها، ولا معنى لهم إلا بوجودهم في نطاق هذه الوحدة، وهم لا يبلغون الكرامة الأدبية والحرية إلا عندما يكرّسون أنفسهم لخدمتها لها الحق الأعلى عليهم وواجبهم أن يتبعوها، ويخضعوا لقوانينها المجسدة للإرادة الحرة([9]) ولكن كيف تفرض القوانين على المواطن إذا كان حراً؟ يجيب هيغل بأن قوانين الدولة الحرة ليست من خارج المواطنين بل هي نفسها ما يريدون فالقوانين تصدر عن الروح العام ففيهم أيضاً جانب الهي كالدولة، وهو الذي يدفع بهم للتوافق مع قوانين الدولة فالقانون هو وجود الإرادة الحرة، هو لحظة من لحظات التجسيد العقلي للإرادة، هو الحرية بصفة عامة كفكرة(10)

(8)مارسيل بريلو، وجورج ليسكيه صفحة 55

(9)سلمى حمزة الخنساء مرجع سابق صفحة 93

(10) فؤاد مرسي، الدولة عند هيغل، مجلة الفكر المعاصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر العدد 76 أيلول 1970 صفحة 46

(11) موريس كارنستون، اعلام الفكر السياسي، دار النهار للنشر بيروت 1970 صفحة 98

(11)جورج سباين، تطور الفكر السياسي، خمس أجزاء، صادرة عن دار المعارف بمصر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك 1971 صفحة 873

واعتمد هيغل في البرهنة على أن التناقض بين الفرد والدولة هو تناقض مزعوم، وجهة نظر روسو* في أن إرادة الفرد الحقيقية هي تلك التي تلتزم بالإرادة العامة وعلى هذا الأساس يحقق الأفراد حريتهم بتوحيد إرادتهم بالإرادة العامة(11)

فالإرادة العامة مبدأ حيوي تتميز به الدولة القومية كمظهر من مظاهر قوة روحانية فالمواطن عندما يطيع الإرادة العامة فهو يطيع نفسه الحقيقية، وعمل ما يريد في الحقيقة أن يعمل، وهو يحقق طبيعته الحقيقية بارتفاعه عن خصوصياته وبمشاركته في حياة المتحد الذي يشكل كلاً عضوياً أشمل يفرض صورته على الأفراد. وتفقد المصلحة الخاصة للفرد أي قيمة خاصة لأنها تكتشف عدم إمكانية تحقيق نفسها إلا بالتوافق التام مع متطلبات المصلحة العامة.

*إن فكرة الدولة تفترض الوجود العقلي الإدارة مشتركة، ولكن برأي هيغل ارتكب روسو خطأ ببناء هذه الادارة في شكل عقد انطلاقاً من قرار ارادات فردية مستقلة فالقوة الموضوعية الموجودة في المجتمع نفسه تصنع مصيرها

فهنا الكل يتخطى الأفراد، ويندمج هؤلاء في إطار الدولة فيكونون جزءاً منها وليست الجزيئات بذات قيمة تذكر إذا ما قورنت بالكليات. فهو عضو في المجتمع لا يبلغ الكرامة الأدبية والحرية إلا عندما يكرس نفسه لخدمة الدولة. إن هيغل نصير الحقوق

المطلقة للدولة تجاه الفرد، فالإرادة كلية أبدية وكذلك الحرية، إذ تحل المواطنية الحقيقية مكان الحرية السلبية التي تتصف بها الإرادة الذاتية. وهنا تبين إنتماء هيغل للمذهب العضوي، فالحرية تستقى من حرية الدولة الكلية ومن الاتحاد العضوي بها. والدولة عضوية، وهي ليست ضد الأفراد وكذلك ليست مجرد وسيلة لتمكينهم من اتباع أغراضهم الخاصة في السلام. إن نظرية هيغل في المواطنة الحرة، شأنها شأن نظرية أفلاطون وأرسطو، لم تجد بلغة الحقوق الشخصية بل بلغة الوظائف الاجتماعية(11)، وهكذا أعادت فلسفة هيغل تقديم الدولة القومية بمعزل عن الفردية، وحقوق الإنسان من حيث إنها الغاية أو المثل الأعلى العقلي للتطور، والعنصر الروحي الحقيقي في الحضارة.

نظام الحكم الأفضل والسيادة([12]):

يرى هيغل أن الدولة تعد نهاية مراحل التطور الموضوعي والتاريخي للروح المطلق، فقد ذهب باعتقاده على أنها الإدارة المقدسة بمعنى أنها عقل كائن على الأرض وكاشفة عن نفسها لتكون الشكل والتنظيم الواقعي للعالم. ومع أنه رفض القبول بأي دستور يرفض من خارج تاريخ الدولة فقد اعتبر أن النظام الملكي الدستوري هو أفضل أشكال الحكم، لأنه النظام الطبيعي الذي يجسد الدولة والفكرة القومية في زعيم واحد يكمن فيه سلطان الدولة ورمز تقاليدها فالزعيم الفرد هو الإرادة الكلية المتجسدة في الإرادة الشخصية.

لكي تكون شخصية الدولة فعلية، يجب أن تتجسد الدولة وسلطتها في الملك أو الحاكم الذي له وضع مستقل عن وضع الأفراد. ففي شخصه تتمثل إرادة الدولة لأنه هو الذي يحمل رسالة العالم التاريخية ويعبر عن إرادة الروح، وحتى لو بدا الملك أو الحاكم قاصداً مصالحه الذاتية فإنه من خلال هذه المصالح تتحقق رسالة التاريخ. بمعنى آخر إن السيادة يجب أن يكمن في الدولة على أساس أنها شخص قانوني،وبما تتمثل فيه شخصية الدولة،وبالتالي تكون السيادة في الواقع للملك ومع ذلك فإن هذا لا يعني في رأي هيغل أن تكون سلطة الدولة الكامنة في الحاكم الفرد سلطة مطلقة وتحكميه ،بل يجب أن تمارس في ظل القوانين الموضوعية والقواعد المعروفة ،التي تحد من سلطة الحاكم

(12)د. محمد مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في اعصر الحديث، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع 2007 صفحة 288

(13)جورج سباين، تطور الفكر السياسي صفحة 880 الكتاب الرابع.

الكيفية .وليس عن الإرادة أو الحكم الشخصي لشاغل الوظيفة والقانون يجب ان يطبق بالتساوي على كل من يشملهم إذ لا يمكن اعتبار القانون الذي يراعي المصالح الخاصة الفردية قانوناً ذات طابع عام.إذاً جوهر الإستبداد في رأي هيغل هو انعدام القانون في الكائن السياسي، وجوهر الحكم الحر والدستور أنه يتمسك بالقانون ويوفر الأمن للجميع "يعني الاستبداد أية حالة يختفي فيها القانون، وحيث تعد الإرادة الخاصة في حد ذاتها سواء أكانت إرادة ملك أو أي إرادة جماعة من الغوغاء. قانوناً أو بالأصح تحل محل القانون، إن الحصن الواقي من الهوى والرأي المتزمت هو بالضبط كون كل شيء في الدولة ثابتاً وآمناً(13)" أما بالنسبة للسلطات في الدولة فيرى هيغل أن هناك ثلاث سلطات:

أ_ السلطة التشريعية التي تمثل الكثرة العددية

بـ_ السلطة الإدارية وتدخل فيها السلطة القضائية وهي تمثل الأقلية

جـ_السلطة الملكية وهي التي تمثل الفرد

ويعتبر هيغل بهذا التقسيم للسلطات تمثيل للتعارض وللوحدة، ذلك أن بعد التعارض القائم بين الكثرة العددية في السلطة التشريعية والأقلية في السلطة الإدارية تتوحد وتتمثل بالسلطة الملكية الفردية، حيث تتجسد فكرة وحدة الدولة، وقد عارض هيغل فكرة فصل السلطات لاعتقاده بوجود تعاون هذه السلطات في وضع القوانين التي بها تتحقق وحدة إرادة الدولة. كما اعتقد هيغل نظام الحكم الاستبدادي. بسبب عدم اعتماده على القوانين، فقد انتقد أيضاً نظام الحكم الجمهوري لكون هذا النظام يجعل الفرد في المستوى الأول، ويضحي بالمثل الأعلى في سبيله أو في سبيل الأسرة. ولذلك يرى أن معظم الجمهوريات قد اندثرت مع الزمن.

الدولة والقوة والعلاقات الخارجية([14]):

لكونه نظر إلى الدولة على أنها ظل الله فقد عارض هيغل الفكرة التي تدعو لايجاد قوانين ومؤسسات عالمية لتكون بمنزلة هيئة أقوى من هيئة الدولة. فالدولة لا تستمد عوامل إرادتها وعملها إلا من نفسها. لذلك يجب أن تكون فوق كل القوانين ماعدا قانونها وبما أن الدولة هي مبعث القيم فقد حاول هيغل تحريرها من جميع القيود الأخلاقية، لأن الأخلاقيات، تقيد الأشخاص ولكنها لا تقيد الدولة كما يرى، إذاً الدولة هي المطلق في التاريخ، وفيها تكمن السيادة والإرادة المطلقة لذا فهي في مرحلة تنافس وصراع دائم مع بقية الدول، مما يؤدي في كل مرحلة من مراحل هذا الصراع التاريخي لظهور دولة لها الغلبة على الدولة الأخرى، فتعرض عليها حضارتها. إن جدول التاريخ يفرض دائماً غلبة حضارية ناشئة على حضارة هرمة. وهكذا استمر التطور لأن يضع في الحضارة المسيحية المتمثلة في الأمة الجرمانية الدور النهائي للانتصار في التاريخ، وهكذا يكون هيغل قد مجد وقدس القومية الألمانية ودور الشعب الألماني في تحضير العالم من هذا كله يرفض هيغل الدعوة لتنظيم علاقات الدولة فيما بينها،

إذ أن الدولة مستقلة وحرة في علاقاتها مع بقية الدول. كما أن المعاهدات والاتفاقات التي تجرى بين الدول ليست إلا تعاقداً وقتياً، على الدولة أن تعدلها وتلغيها حينما ترى مصلحتها من ذلك. ولهذا فإن الحروب تبقى دائماً المهيمنة في العالم، ذلك أنه في الحرب تحفظ الدول كيانها وتؤمن استمرارها وتحفظ للأمم صحة مناقبها. فالحروب تقضي على القديم البالي وتفسح المجال لغلبة العناصر الجديدة الحيوية، لذا فإن السلم يؤدي إلى الجمود وهذا ما كان

(14)محمد مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث مرجع سابق صفحة 229

(15)الفكر السياسي الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، كلية العلوم السياسية، التعليم المفتوح، برنامج الدراسات الدولية والدبلوماسية 2007-2008 صفحة 132

(16)كتاب الأمير، تعريب خيرى حماد وتعقيب فاروق سعد، منشورات المكتب التجاري بيروت 1962 صفحة 281

يعتبره مستحيلاً عبر فلسفته الجدلية(15) والحرب التي يعلن هيغل عن ضرورتها ليست الحرب الاستعمارية التوسيعية فهذا النوع من الحروب يؤدي إلى قيام إمبراطوريات تجمع شعوباً مختلفة وبالتالي تفقد الدولة وحدتها الذاتية وفرديتها الأصلية. إضافة إلى أن الأمبراطوريات ليست هي التي يسعى إليها التاريخ(16) لقد كانت فلسفة هيغل في الدولة تعتبر أن الحقيقة هي واقع الدولة، والدولة هي القوة إذاً الحقيقة يجب أن تكون صلب القوة، وعلى هذا الصعيد يلتقي هيغل مع ميكافيلي ونيتشه باعتباره أن الحق والقوة يجتمعان. فالقوة هي الحق والحق هو القوة، وعلى هذا الأساس كان يدعو الألمان لاستعمال القوة لتحقيق وحدتهم القومية، لأن الوحدة في رأيه لا يمكن أن تقوم عن طريق الاتفاق والرضا به بل عن طريق الحاكم أو الزعيم السياسي الذي يجمع بين النبوغ السياسي والقوة العسكرية.

الخاتمة:

لقد كانت فلسفة هيغل السياسية بديالكتيكها عنصراً هاماً في تقدم الدراسات الاجتماعية التي لم تكن من الممكن التوصل إلى الكثير من نتائجها بدونها. كما أنه بنظريته في الدولة القومية كتجسيد للسلطة السياسية، كان يقترب كثيراً من ميكافيلي المؤمن بأهمية الوحدة القومية، إضافة إلى ذلك يمكن القول أن لم يبتعد عن بودان بدعوته للسلطة الملكية الدستورية كضرورة أساسية لوجود الدولة.

إن هيغل لم يقف عن التصور الذي رسمه فخته للدولة القومية بل دفع به في ظل المثالية المطلقة إلى نهايته المنطقية وأضاف بهذا بطريقة غير مباشرة للتراث الجرماني الذي تتوج بإقامة النظام النازي، فتعاليم هيغل أعطت تبريراً فلسفياً لتسلط الدولة القومية وعبادة الزعيم وللرسالة التاريخية للأمة الجرمانية وغير ذلك من دعائم الفلسفة النازية وبرنامجها التطبيقي. وقد وضع هيغل تلك التعاليم وهو مدرك أهمية الفلسفة السياسية في تاريخ الدولة والشعوب.

لقد عمل هيغل على بناء فكر سياسي خال من العناصر التحريرية التي تضمنتها حتى فلسفة فخته ذاته، لقد بادر هيغل بالثناء على روسو وفخته إذ جعلا الإرادة المبدأ الذي تقوم عليه الدولة.

المراجع:

1 –سلمى حمزة الخنساء، *تطور الأفكار السياسية*، الجامعة اللبنانية 2003

2 –فرانسوا شاتليه، هيغل، *ترجمة جورج صدقني* ، مراجع فؤاد جرجي بربارة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1976

3 –مهدي محفوظ، *اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث* ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع 2007

4 –ليونارد، بورجوا، *فكر هيغل السياسي*، ترجمة الأب الياس الزحلاوي، منشورات وزارة الثقافة السورية 1981

5 –محمد عبد العزيز نصر، *النظريات السياسية والنظم السياسية*، دار النهضة العربية، بيروت 1973

6 –موريس كارنستون، *إعلام الفكر السياسي*، دار النهار للنشر بيروت 1970

7 –مارسيل بريلو، وجورج ليسكيه، *مبادئ عن السياسة* ، ترجمة محمد برجاوى، منشورات بيروت–عويدات 1983

8 –فؤاد مرسي، *الدولة عند هيغل*، مجلة الفكر المعاصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر العدد 67 أيلول 1970

9 –جورج سباين، *تطور الفكر السياسي*، خمس أجزاء، صادرة عن دار المعارف بمصر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك 1971

10 *الفكر السياسي الحديث والمعاصر*، منشورات جامعة دمشق، كلية العلوم السياسية، التعليم المفتوح، برنامج الدراسات الدولية والدبلوماسية 2007–2008

11 *كتاب ميكافيلي*، الأمير، تعريب خيرى حماد، وتعقيب فاروق سعد، منشورات المكتب التجاري بيروت 1962